رأي وحوار

الجمرات في الحج:
درس إبراهيمي في الثقة المطلقة بالله

عبد الحميد أحمد أبو سليمان*

في ورقة "يوم عرفة لتعارفوا" التي سبق نشرها، وضَّح التدبُّر القرآنيُّ أنَّ يوم عرفة درسٌ إلهي يجسِّد الإخاء الإنساني مهما اختلفت الألوان أو القسمات أو اللغات، وينبذ جميع ألوان العنصرية بين بني آدم (الإنسان) تحقيقاً لمقصد التعارف بين الناس؛ شعوباً وقبائل: وذلك قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (الحجرات: ١٣)

والدرس الثاني الذي نتعرض له هنا هو درس أبينا إبراهيم الخليل وابنِه اسماعيل في "الثقة المطلقة بالله سبحانه وتعالى"، على عكس ما نراه من ممارسات أبناء الأُمَّة لشعائر الحج عموماً وأدائهم لشعيرة "رمي الجمرات خصوصاً".

وكأحد أبناء مكة المكرمة، ومنذ أن كنت صغير السن، كنت أعجب من تزاحم الحجيج حول النُّصُب (الأعمدة الحجرية) الثلاثة إلى حدِّ دهس الضعيف من الناس تحت الأقدام، وكذلك رمي هذه النُّصُب التي تدعى "الشياطين" بالنعال من الكثير من الحجيج. وهذه النُّصُب قائمة في موضعها يراها كل من يذهب إلى مِنَى طيلة العام قائمة ولا يلقى لها أحد بالاً من أبناء مكة، أو سواهم من زوار مكة المكرمة.

ومنذ تعلمت في المدرسة تفاصيل وقائع قصة السيرة النبوية وشعائر الحج، ومنها قصة ووقائع حياة سيدنا إبراهيم، وسيدنا اسماعيل، أدركت الدرس العظيم الذي علَّمنا إيَّاه سيِّدُنا إبراهيم وسيّدُنا إسماعيل في رمى الجمرات، وهو الدرس الذي علينا أن نمثله ونتمثله وندركه جسدياً برمى هذه النُّصُب الثلاثة، لأنَّ ذلك يرمز إلى الثقة المطلقة في الله سبحانه وتعالى، ويمثِّلُها.

* دكتوراه في العلاقات الدولية، رئيس مجلس أمناء المعهد العالمي للفكر الإسلامي. البريد الإلكتروني: aabusulayman@yahoo.com

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ (الصافات: ٩٩-١١١).

والحجّ فريضة على كل مسلم قادر، لا بدّ أن يؤدِّيها مرة واحدة على الأقل في حياته. ومن شعائر الحج شعيرة رمي الجمرات، التي لا بدّ أن يمارسها ويتمثلها الحاج، وفي هذه الشعيرة درس عظيم وموعظة مؤثرة؛ ذلك أنَّ الله سبحانه أَمَرَ أبانا إبراهيم أن يذبح ابنه إسماعيل، فقبل سيدنا إبراهيم، وامتثل للأمر، وأمر الله سيدنا إسماعيل، أن يمتثل لأن يذبحه أبوه إبراهيم، فقبل وامتثل هو الآخر: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الصافات: ١٠٢)

والمهم الذي حدث بعد ذلك، ووفقاً للأمر الإلهي، أنَّ سيِّدَنا إسماعيل، افترش الأرض، ليذبَحَه أبوه إبراهيم امتثالاً للأمر، واعتلى سيدُنا إبراهيم، جسدَ ابنه إسماعيل، واستلَّ سكِّينه امتثالاً لأمر الله، ليذبح سيدنا إسماعيل، في هذا الموقف، أتاه ابليس (الشيطان) يوسوس له -كما وسوس لأبيه آدم من قبل- في أن لا يذبح ابنَه وفِلْذَةَ كَبِدِه، فأنكر سيدنا إبراهيم وسوسة إبليس.

والجمرات هي الحَصَيات السَّبْع (جمع حصاة) أو الحجارة الصغيرة التي يَرمي بها الحاجُّ النّصب (العمود المنصوب) في ذلك الموقع، الذي يدعوه أهل مكة الجمرة الأولى أو "الشيطان الأكبر". ورمي الجمرات هو رمز لرفض سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل "وسوسة" إبليس (الشيطان).

وبعد الموقع الأول "الأكبر" انتقل سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل إلى موقع آخر، توسَّد فيه إسماعيل الأرض، واعتلاه أبوه سيدنا إبراهيم ليذبحه، امتثالاً منهما لأمر الله، فعاد إبليس (الشيطان) إلى وسوسته، فرفض سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل وسوسة

إبليس. والحصيات السبع (الجمرات) هي رمز ملموس للحاج لإعلان الرفض، ويدعى هذا الموقع الجمرة الوسطى أو الشيطان الأوسط. ثم انتقل الأب إبراهيم، وابنه إسماعيل عليهما السلام إلى موقع ثالث، يدعى "الجمرة الصغرى" أو "الشيطان الأصغر" واعتلى أبونا إبراهيم جسد ابنه اسماعيل، وفي هذه المرة الثالثة أجرى سيدنا إبراهيم "السكين" قاصداً ذبح سيدنا إسماعيل، -وبالطبع ينتظر أن يغلق الأب عينيه وهو يذبح ابنه- فأحلَّ الله محلّ سيدنا إسماعيل كبشاً، وأنجاه من الذبح والموت.

والدرس المستفاد هنا هو أنَّ الحاجَّ المسلم، ذكراً كان أو أنثى، يجب أن يتمثل في هذه الشعيرة من شعائر الحج، درساً عظيماً، هو الدرس الإبراهيمي الإسماعيلي، درس الثقة المطلقة بالله سبحانه وتعالى، وهو درس عظيم من دروس شعائر الحج في طاعة الله والثقة المطلقة به سبحانه وتعالى.

لعلَّ علماءَنا ودعاتنا، يبذلون مزيداً من الجَهْد، لانتشال أبناء الأمة، في هذا العصر، من التشوُّهات والأساطير التي تراكمت على مدى قرون، على ثقافة الأمة ومفاهيمها لحياتها وعقائد دينها، لتَصْلُحَ عقولُها، ليَصلُح حالُها وحالُ الإنسانية، فقد "بلغ السيل الزُّبَى" وسالت -بكل جهالة ووحشية واستهتار وعنصرية- أنْهارُ الدماء، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ندعو الله لنا وللأمة والإنسانية بالصلاح والرشد والسداد.